التعليم في بغداد ١٨٦٩ – ١٩٤٣ مع التركيز على تعليم الإناث بواكير التحديث ومعوقاته

أ . د . ناهدة عبد الكريم حافظ

جامعة بغداد/ كلية الآداب/قسم علم الاجتماع

(مُلَخَّصُ البَحث)

أن أحد مؤشرات تحديث المجتمع العراقي تتمثل في بدء اشتغال نظام التعليم الرسمي في بغداد، وخصوصاً تعلم الإناث، وأنه ترافق مع جملة من المتغيرات الاقتصادية والسياسية مهدت لانفتاح هذا المجتمع على العالم ، بعد أن كانت الخدمات مترديه نتيجة لعوامل سياسية وغيره – سياسية كالأوبئة والفيضانات ، تناولنا في هذه الدراسة ما يأتي:

١ – تمهيد يتضمن إجابات على تساؤلات يثيرها عنوان الدراسة.

٢ – بواكير التحديث، ونتناول فيه بدايات النظام التعليمي – الذي أنشأه مدحت باشا في بغداد.

٣ – التعليم بعد قيام الدولة العراقية.

الكلمات المفتاحية: المرأة، التعليم، بغداد.

المقدمة :

تنطلق هذه الدراسة الموجزة من قضية مفادها: أن بدء اشتغال نظام التعليم الرسمي في بغداد، وخصوصاً تعلم الإناث، هو أحد مؤشرات تحديث المجتمع العراقي، وأنه ترافق مع جملة من المتغيرات الاقتصادية والسياسية مهدت لانفتاح هذا المجتمع على العالم. ومن المفارقات اللافتة أن بواكير تحديث المجتمع العراقي، ترافقت مع استمرار ضعف الدولة العثمانية وبالتالي انهيارها رغم ما حاول رجالها القيام به من إصلاحات.

أن تأخر إنشاء أول مدرسة في بغداد حتى سنة ١٨٦٩ لا يعني أن بغداد خلت من النشاط العلمي بل يمكن القول أن بغداد مرت بأسوأ مراحل تاريخها الحضاري منذ أن سقطت بيد هولاكو عام ١٢٥٨م، وتتابعت على حكمها قبائل بدوية مثل القره قوينليين والآق قوينلين، ثم العثمانيين حيث أصبحت بغداد ساحة للحروب، وسادتها قيم البداوه. غير أن المؤسسات الدينية والأوقاف والكتاتيب ظلت تمارس أدواراً تعليمية قد تكون محدودة إلا أنها مهمة وتدلل على أن الاهتمام بالعلم

لم يختفي في بغداد كلياً مع ملاحظة أن عوامل أخرى – غير سياسية – لعبت هي الأخرى دوراً مهماً في التأثير سكانيا واجتماعياً على بغداد. عوامل مثل الفيضانات والأوبئة. لقد بدأ الإصلاح التعليمي في الأستانه العثمانية قبل تاريخ قيام أول مدرسة في بغداد إذ أن السلطة العثمانية لم تكن تهتم كثيراً بالولايات التابعة لها بل تركز على موضوع الضرائب وتدخل في حروب مع العشائر أما الخدمات فقد كانت مترديه الى حد كبير. تناولنا في هذه الدراسة :

١ – تمهيد يتضمن إجابات على تساؤلات يثيرها عنوان الدراسة.

٢ – بواكير التحديث، ونتناول فيه بدايات النظام التعليمي – الذي أنشأه مدحت باشا في بغداد.

٣ – التعليم بعد قيام الدولة العراقية.

نأمل أن يكون البحث مفيداً أن شاء الله.

التعليم في بغداد ١٨٦٩ – ١٩٤٣

(مع التركيز على تعليم الإناث)

بواكير التحديث ومعوقاته

تساؤلات أولية :

لماذا المرأة ؟ . ولماذا التعليم ؟

لأن المرأة نصف المجتمع من ناحية التوزيع النوعي للسكان عددياً . إلا أنها طبقاً لمعيار المشاركة في حياة المجتمع تعاني تمييزاً واضحاً من قبل المجتمع وخصوصاً فيما يتعلق بحقوقها المشروعة كإنسان . أن المعيار المذكور ممثلاً بحق المرأة في التعليم، يعكس حقيقة أن المجتمع قد اختار أن يمضي على الطريق التنموي السليم، ذلك لأن التعليم، بوابة التنمية، ونافذة العلم، بما يحققه من تصورات جديدة عن الذات وبما يوفره من فرص؛ ومن شعور بالقدرة على التجاوب مع متطلبات الحياة والتعامل العقلاني مع مشكلاتها.

وبغداد، التي كانت منارة العلم[*] ومنبراً للثقافة، وتعاظمت واتضحت فيها معالم التحضر من حيث تنوع مهن السكان، وظهور الجماعات المهنية، والمؤسسات

[*] في عصر فجر السلالات السومرية وتحديداً في حوالي (٥٠٠٠) سنة قبل الميلاد اخترع العراقيون الكتابة. وفي كل من مدينة سبار وكيش عثر على مدرستين ترجعان الى عصر حمورابي وفي الفترة ٥٢٦ – ٥٣٩ ق.م أطلق على المؤسسات التعليمية أسم (المدارس) ينظر : بدون مؤلف، العراق في التاريخ ، بغداد، دار الحرية، ١٩٨٣، ص٩٤، وص٢٢٣.

ويذكر الباحثون أن أول مدرسة انشئت في مدينة سبار وأول كتابة وجدت في الوركاء إذ اكتشفت في كتاتيبها أقدم كتابة في تاريخ الإنسان وكان الكاهن العراقي أول مدرس في المدرسة العراقية. (راجع حول التعليم في العراق القديم : رفائيل أبو أسحاق، مدارس العراق قبل الإسلام، بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٥٥، ص٥ وما

والـنظم الإداريـة فضـلاً عـن دور العلـم ومراكـزه، ورمـوزه، ... بغـداد ... سـرعان مـا أضـمحل دورهـا وخفـت بريقهـا طـوال قـرون مظلمـة ... كـان المجتمـع العراقـي خلالهـا فـي أسـوأ حـالات تخلفـه وكـان وضـع المـرأة المتـردي أحـد أهـم مؤشـرات ذلـك التخلـف الـى جانـب الكـوارث الطبيعيـة والإدارة السـيئة لحيـاة العـراقيين، اقتصـادياً وسياسـياً وثقافيـاً وعلـى نحـو تمخضـت عنـه الكـوارث الـثلاث المعروفـة: الفقـر والمـرض والأميـة كما يذكر الأستاذ هاشم جواد في كتابه عن البناء الاجتماعي للعراق.

ولماذا بغداد ... ؟

بـالطبع هنـاك مناسـبة مهمـة هـي أن بغـداد عاصـمة الثقافـة لعـام ٢٠١٣. لكـن هـذا لـيس المبـرر الوحيـد، بـل أن بغـداد مـرآة العـراق. ومـا يحـدث فيهـا سـينعكس عليـه إن عـاجلاً أو آجـلاً. كمـا أن تعلـيم الإنـاث بـدأ فـي بغـداد منسـجماً مـع تحـول مهـم فـي عقليـة إدارة الدولـة العثمانيـة وإن بـدا تعلـيم الإنـاث قـد حـدث مصـادفة خـارج سـياق إجـراءات إدارة تلـك الدولـة كمـا سـنبين مـع أنـه – أي التعلـيم – كـان أحـد المؤشـرات المهمة في عملية تحديث المجتمع العراقي، وأولى خطوات انفتاحه على العالم.

ولماذا هذه المدة الممتدة من ١٨٦٩ الى ١٩٤٣ ؟؟

والجـواب هـو أن أول مدرسـة ابتدائيـة رسـمية تأسسـت فـي بغـداد عـام ١٨٦٩، وكانـت مخصصـة للـذكور دون الإنـاث. وفـي عـام ١٨٩٩ أي بعـد حـوالي ثلاثـة عقـود تأسسـت أولـى مـدارس البنـات. أمـا عـام ١٩٤٣ فهـو تـاريخ وضـع نظـام المعـارف رقـم (٣٣) لسنة ١٩٤٣ وتبعه نظام البعثات للسنة نفسها[١].

ولكـن لمـاذا اعتبرنـا التعلـيم مـن بـواكير التحـديث فـي بغـداد خصوصـاً وفـي العـراق عمومـاً. فـي اعتقادنـا أن التعلـيم هـو الطريـق الـذي لابـد منـه لكـل متغيـرات التحـديث، فهـو منطلـق نحـو تغييـر اتجـاه الأفـراد نفسـياً، كمـا أنـه ينمـي الحاجـة الـى الإنجـاز. وكـان دانييـل ليرنـر فـي كتابـه : تحـول المجتمـع التقليـدي، وهـو مـن روّاد نظريـة التحـديث قـد عـد المجتمـع الحـديث هـو الـذي يحقـق درجـة متقدمـة فـي سـلم التحضـر والتعلـيم والمشـاركة فـي وسـائل الاتصـال. كمـا أن بارسـونز عـد التعلـيم أحـد مؤشـرات التحـديث. وكـان روسـتو واضـع النظريـة المعروفـة فـي التنميـة قـد أشـار الـى خمـس مراحـل للنمـو أولهـا مرحلـة المجتمـع التقليـدي وثانيهـا مرحلـة التهيـؤ للانطـلاق وفيهـا

بعدها) ومن الطريف أن الكتابة البارزة للمكفوفين استنبطت في بغداد من قبل رجل أسمه زين الدين الآمدي، العابر عام ٧٠٠ هـ. ينظر : ميخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي ، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٨١، ص٧٥ وما بعدها.

[١] د. هاشم جواد، مقدمة في كيان العراق الاجتماعي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٤٦، ص١١٠.

ينتشر التعليم ولو على نطاق محدود وضمن طبقات اجتماعية محددة[٢]. لقد كانت مسيرة التعليم في العراق خلال الحكم العثماني بطيئة، كما أن مضمونه كان سطحياً لكنه مهد لتطورات لاحقة مهمة وخصوصاً بعد قيام الدولة العراقية ١٩٢١.

بواكير التحديث :

حين نتكلم عند التحديث Modernization فإننا نتكلم بالضرورة عن تحول إيجابي من وضع نعده متخلفاً الى آخر نضفي عليه صفة التقدم Progress. ومن المعلوم أن علم الاجتماع الغربي أنشغل بقضية التحديث منطلقاً من تصورات ذات مضمون أثني يرى في الحضارة الغربية أنموذجاً ينبغي على المجتمعات– الأخرى – الشرقية على وجه الخصوص – أن تقتدي به وأن تسعى الى تقليده. فالتحديث محاولة للحاق بالتقدم وهذا يتطلب التحول من الريفي الى الحضري ومن الإقطاعي الى الرأسمالي ومن الزراعي الى الصناعي ومن العفوي الى العقلي ومن التقليدي الى الحديث[٣]. فالتحديث أذن هو عملية تحول نحو أوضاع اقتصادية وسياسية واجتماعية وعلمية وتقنية أفضل. أن معظم علماء الاجتماع ينطلقون في تعاملهم مع ظاهرة التحديث أو الحداثة من مرحلة زمنية محددة في تاريخ أوربا ومن ثقافة معينة هي الثقافة الغربية. ويرى ولبرت مور أن التحديث هو تحول كلي للمجتمع التقليدي (أو ما قبل الحديث) الى مجتمع من النوع التقني والتنظيم الاجتماعي الذي يميز دول العالم الغربي المزدهرة اقتصادياً والمستقرة نسبياً[٤]. أن مفهوم التحديث ينطوي على مؤشرات وعناصر عديدة، بمعنى أنه مفهوم مركب ويمكن النظر أليه من زوايا متعددة. وحين نراجع المرحلة التي يتناولها هذا البحث، نجد أنها ازدحمت بأحداث وشهدت تحولات خطيرة هي في الواقع من جملة نتائج التحولات التي طرأت على الدولة العثمانية ذاتها كما سنبين.

لعل أول ما ينبغي ذكره هو أن الدولة العثمانية التي أشتد ضعفها رغم محاولات تحديثها لم تكن مهتمة بالتعليم؛ وبعبارة أدق إنها عدت وجود المدارس الابتدائية واجباً على السكان وليس على الدولة[*]. وحين نستذكر حقيقة أن سكان

---

[٢] د.كامل عمران ود.توفيق الداود، علم أجتماع التنمية، دمشق، جامعة دمشق، ٢٠٠٨، ص٥٧ وما بعدها.

[٣] جون سكوت (المحرر) علم الاجتماع، المفاهيم الأساسية، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠٠٦، ص٩١.

[٤] د. أحمد سالم الأحمر، علم الاجتماع الأسرة، بيروت، دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٤، ص١٤٥ – ١٤٦.

[*] طبقاً لقانون التعليم العام العثماني الصادر سنة ١٨٦٩ فإن نفقات إنشاء المدارس الابتدائية وإدامتها ومرتبات معلميها وما تتطلبه من نفقات أخرى تقع على عاتق السكان المحليين في الولايات وليس على الدولة وقد شكل ذلك عائقاً أماما التعليم. (ينظر : د. جميل موسى النجار، التعليم في العراق في العهد العثماني الأخير (١٨٦٩ – ١٩١٨)، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠٢، ص٤٦).

العراق لم يزد عام ١٨٦٧- بحسب تقارير القناصل الأجانب – على ١,٢٨٠,٠٠٠ نسمة، وأن نسبة سكان المدن بما فيها بغداد كانت تقل عن (٢٥%) من مجموع السكان، ندرك أن النظام التعليمي لم يكن له وجود، وأن قادة الدولة العثمانية، لم يخطر ببالهم أن ينشئوا مدارس للبنات أصلاً.

على أن عوامل عديدة مهدت لتغيير ذلك الوضع. ولعل أهمها :

١ – التحولات الإصلاحية التي شهدتها الدولة العثمانية بوصفها إجراءات للخروج من شرنقة التخلف واللحاق بالمراحل المتقدمة التي شهدتها الدول الأوربية. ففي سنة ١٨٣١م (١٢٤٧هـ) انتهى حكم المماليك في بغداد وقد أعقب ذلك بسنوات قليلة (١٨٣٩) البدء بعملية إصلاح واسعة كونت ما سمى فيما بعد بـ (عهد التنظيمات) والذي بدأ بإعلان المرسوم الإصلاحي (خط شريف كلخانه) [*]. وفي سنة ١٨٥٦ صدر مرسوم مهم صدرت على أساسه كثير من التشريعات المهمة التي أسهمت في تحديث إدارات الدولة المختلفة على أن آثار المرسوم المذكور وما صدر بموجبه من قوانين إصلاحية كانت بطيئة التسرب الى بغداد ولم تظهر تلك الآثار بصورة واضحة قبل عهد الوالي مدحت باشا (١٨٦٩ – ١٨٧٢) [٥]. على أن هناك في الوقت ذاته إجراءات وقوانين كانت عائقاً أمام التعليم من ذلك مثلاً منع تأسيس المدارس الأهلية حتى من قبل المسلمين دون موافقة السلطان العثماني نفسه. كما أن بعض الولاة الذين أنشئوا مدارس دينية استهدفوا الظهور بمظهر الورع وليس حباً بالعلم[٦].

٢ – التطورات الاقتصادية ودورها في تحديث المجتمع العراقي : انتهى حكم المماليك، والمدينة في أسوأ حالاتها إذ تناقص عدد سكانها حتى بلغ (٥٠ – ١٥٠ ألف نسمة فقط فيما تعاظم تأثير الإمارات القبلية. ومع ذلك بدأ العراق بالانفتاح على العالم ففي سنة ١٨٦٥ تم ربط العراق مع أوربا والهند بخطوط التلغراف وانتظمت منذ عام ١٨٦٢ خدمة السفن التجارية مما زاد في حجم التجارة. لقد أدت التغيرات التي حدثت في البنية الاجتماعية – الاقتصادية للمدن الى النمو الديمغرافي كما تحولت قابلية المدينة على استيعاب التغيرات الحضارية المختلفة

---

[*] أطلق أسم التنظيمات على حركة الإصلاح التي قامت في الدولة العثمانية منذ صدور مرسوم كلخان سنة ١٨٣٩ وحتى صدور الدستور العثماني ١٨٧٦ (راجع : د. جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠١، ص٢٠ وما بعدها).

[٥] نفس المصدر، ص٤٧ وما بعدها .

[٦] د. جميل موسى النجار، التعليم في العراق في العهد العثماني الأخير (١٨٦٩ – ١٩١٨)، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠١، ص٤٨ – ٤٩).

الى حافز مُعزٍ لجلب أعداد متزايدة من الناس. وبذلك ارتفع عدد سكان بغداد من (٢٠) ألفاً عام ١٨١٣ الى حوالي (٨٠) ألفاً عام ١٨٧٨[*] ومن ثم الى ما لا يقل عن (١٤٥) ألفاً عام ١٩٠٠[٧].

٣ – بالرغم من أن العثمانيين وضعوا عوائق أمام قيام غير المسلمين بإنشاء مدارس أهلية إلا أن البعثات التبشيرية قامت بفتح مدارس للطوائف الموجودة في العراق مما أثار الدولة العثمانية وجعلها تلتفت الى موضوع التعليم في العراق. ويعد الآباء الدومنيكان من أقدم الأرساليات التبشيرية واشتهرت بممارسة الطب والتعليم. وكانت المؤسسات التعليمية الكاثوليكية في الموصل وبغداد تتلقى مساعدات مالية من الحكومة الفرنسية وفي سنة ١٨٧٨ أسست الطوائف الكاثوليكية الثلاث (الكلدان والسريان والأرمن). مدرسة ابتدائية في بغداد مدة الدراسة فيها أربع سنوات سميت بأسم (مدرسة الأتفاق الشرقي الكاثوليكي) [*] أن كثيراً من المعلمين في هذه المدارس كانوا من الأجانب الذين يشكلون مصادر اتصال جديدة مع العالم كما أن المناهج توفر للطلبة ثقافة مختلفة عن تلك التي تتداولها الكتاتيب التقليدية.

٤ – الدور الإصلاحي التحديثي لمدحت باشا : لم يستمر حكم الوالي مدحت باشا طويلاً. إلا أن إصلاحاته كانت موضع استحسان من قبل الدارسين بل أن المجتمع العراقي شهد في عهده إجراءات تحديثية مهمة، وفي مجالات متعددة منها مجال التعليم. كان مدحت باشا شخصية عرفت بالرغبة في اللحاق بأوربا، وكانت محاولاته الإصلاحية قد سبقت حضوره الى بغداد ففي البلقان، حيث كان والياً قام بالعديد من الإصلاحات منها إصدار صحيفة باللغتين التركية والبلغارية كما أسس عدداً من مدارس الصنائع وكانت إحدا هذه المدارس خاصة بالبنات كما فتح مدارس ابتدائية للمسيحيين من أبناء الولاية. ثم تعاظم دوره الإداري والتشريعي حين أصبح رئيساً لمجلس شورى الدولة الذي كان يضطلع بمهمة وضع الأنظمة

---

[*] يشير الدكتور علي الوردي الى ما أورده الدكتور محمد سلمان حسن حول توزيع سكان العراق. ومنه نفهم أن سكان العراق عام ١٨٦٧ كان بحدود المليون وربع إلا قليلاً تؤلف القبائل البدوية ٣٥% والريفية ٤١% منها أما أهل المدن فلم تكن نسبتهم تزيد على ٢٤%. د. علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٥، ص١١٩.

[٧] محمد جبار إبراهيم الجمال، تأثير التحولات الاقتصادية في نمو المجتمع العراقي الحديث (١٨٦٩ – ١٩١٤) دراسة في مجلة: دراسات تاريخية، العدد (٢١)، ٢٠٠٩، بغداد، بيت الحكمة، ص٤ وما بعدها.

[*] على أن العثمانيين شددوا قيودهم في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر على المؤسسات التعليمية التبشيرية. (ينظر : د. أحمد جودة، تاريخ التربية والتعليم في العراق (١٥٣٤ – ٢٠١١م)، بغداد، نورس للطباعة، ٢٠١٢، ص٥٩ وما بعدها). ولعل من المفيد الإشارة – أيضاً – الى أن أول مدرسة يهودية تأسست في بغداد في سنة ١٨٣٢ وفي سنة ١٨٦٤ تأسست مدرسة الأليانس (راجع: نفس المصدر، ص٦٦ وما بعدها).

والقوانين ثم أعفي منه وعين والياً على العراق (بعد ضم ولايتي الموصل والبصرة الى ولاية بغداد) ووصل بغداد في (٣٠) نيسان ١٨٦٩[٨]. يلخص الدكتور علي الوردي جهود مدحت باشا بالقول : أن أعماله كانت من أوائل بوادر الحضارة الحديثة في العراق. ويبدو أن من معالم سياسة مدحت باشا أنه أشرك الأهالي في جهوده إذ اعتمد على تبرعاتهم وكان في أول خطبة له قد أشار الى أن الخراب في البلاد (ناجم عن تقصير الإهلين فلم يسلكوا ما سلكته الأمم) [٩]. وهكذا حث مدحت باشا الناس على أن يلتفتوا لأحوالهم. لقد حاول هذا الوالي أن يجعل بغداد جديرة بمكانتها. مما أوجد بيئة مؤاتية للتحديث والتنمية في مجالات مهمة مثل المواصلات والصحة والترفية والإدارة[١٠].

لقد أسهمت تلك العوامل، وأخرى غيرها في أحداث تغييرات مهمة في حياة العراقيين وخصوصاً أهل بغداد منهم بالرغم من أن الدولة العثمانية ذاتها كانت تتحول رغم محاولات الإصلاح من سيئ الى أسوأ حتى صارت تدعى الرجل المريض . وبالرغم أن تلك التغيرات لم تكن موضع ترحيب من قبل القوى والنخب المحافظة دينية أو عشائرية وخصوصاً حين يتعلق الأمر بتعليم النساء الذي غالباً ما ينظر إليه من خلال تصورات نمطية تحط من قيمة المرأة وتعزز تخلفها وتبرر التمييز ضدها[*].

لم يتطرق مرسوم كلخانة (١٨٣٩) الى التعليم بأي شكل من الأشكال لكنه كان فاتحة الإصلاحات التي شهدتها الدولة ومن بينها التعليم. ففي عام ١٨٤٥ قامت الحكومة بتشكيل لجنة تتألف من سبعة أشخاص من المتضلعين بالقانون والعلوم العسكرية والمدنية لدراسة أحوال المدارس القائمة في البلاد وتقديم التوصيات اللازمة لفتح مدارس أخرى جديدة. وقد أوصت اللجنة بإنشاء مجموعة من المدارس الابتدائية والثانوية وتأسيس جامعة ومجلس دائم للمعارف العمومية على أن حركة

---

[٨] النجار، التعليم في العراق، ص١٠٠ وما بعدها.

[٩] د. علي الوردي، نفس المصدر، ص١٣٧.

[١٠] راجع: حول عناية مدحت باشا ببغداد، د. عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٨، ص٣٨٠ – ٣٨١.

[*] يذكر الدكتور علي الوردي أن الفقيه البغدادي المعروف الشيخ نعمان بن أبي الثناء الآلوسي ألف في عام ١٨٩٧ كتاباً بعنوان (الإصابة في منع النساء من الكتابة) وقد جاء فيه : فأما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله منه إذ لا أرى شيئاً أضر منه بهن فأنهن لما كن مجبولات على الغدر كان حصولهن على هذه الملكة من أعظم وسائل الشر والفساد. فالليبب من الرجال هو من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى فهو أصلح لهن وأنفع). ويعلق الدكتور الوردي قائلاً أن موقف الناس تجاه مدارس البنات كان أشد كثيراً من موقفهم تجاه مدارس البنين (د. علي الوردي، نفس المصدر، ص٣٤٧).

إنشاء المدارس كانت بطيئة إذ حتى سنة ١٨٥١ لم يزد عددها على (٦) مدارس فقط يدرس فيها (٨٧٠) طالباً. فضلاً عما تقدم فإن الإصلاحات التعليمية الحكومية لم تظهر نتائجها في ولايات العراق مطلقاً إلا بعد صدور قانون التعليم العام عام ١٨٦٩ على يد والي مدحت باشا[١١]. يعكس القانون المذكور مدى تأثر النظام التعليمي العثماني بنظام التعليم الفرنسي وخاصة من ناحية أشراف الدولة على جميع المواضيع التدريسية[١٢]. بلغت مواد القانون (١٩٨) مادة تشمل مختلف نواحي التعليم. وقد قسم القانون المدارس الحكومية الى خمسة أقسام :

١ – المدارس الابتدائية.

٢ – المدارس الرشدية.

٣ – المدارس الإعدادية.

٤ – المدارس السلطانية.

٥ – المدارس العالية.

تطرقت المادة الثالثة من القانون لذكر المدارس الابتدائية وحددت مدة الدراسة فيها بأربع سنوات ونصت على أن التعليم الابتدائي إلزامي للبنين في سن السابعة والبنات في سن السادسة حيث تفرض غرامات مالية على أولياء أمور الأطفال، إذا لم يلتزموا بإلحاق أبنائهم وبناتهم في المدارس الابتدائية حين بلوغهم السن المحدد[١٣]. على أن التعليم في بغداد خصوصاً لم يظهر كنظام رسمي إلا مع مجيئ مدحت باشا. إذ أن الإصلاحات التعليمية التي طبقت في الاستانة لم تظهر في بغداد. أنشأت على يد الوالي المذكور أربع أصناف من المدارس هي :

أ – المدرسة الرشدية المدنية.

ب – المدرسة الرشدية العسكرية.

ج – المدرسة الإعدادية العسكرية.

د – مدرسة الفنون والصنائع[١٤].

أن الطابع الطاغي على هذه المدارس هو الطابع العسكري. فالدولة العثمانية دخلت العديد من الحروب كان جيشها قد تخلف بالمقارنة مع جيوش الدول الاوربية، ولذلك كان النظام التعليمي جزءاً من عملية تحديث المؤسسة العسكرية،

---

[١] (١) النجار، التعليم في العراق، ص٥٤ – ص٦٤.

[٢] (١) د. أحمد جود، مصدر سابق، ص٤٨.

[٣] (١) أنظر تفاصيل عبد المدارس المذكورة في: النجار، المصدر نفسه، ص٦٤ وما بعدها.

[٤] (١) د. عبد العزيز نوار، مصدر سبق ذكرع، ص٣٨٢.

كما أنه في الوقت ذاته عكس حاجة الدولة في ضوء اصلاحاتها الإدارية الى موظفين يتمتعون بالحدود الدنيا للكفاءة.

أنشأ مدحت باشا أول مدرسة رشدية (متوسطة) في بغداد سنة ١٨٧٠ وكان الناس في حالة عزوف تام عنها لكنه بذل كثيراً من الجهود لإقناعهم بأهميتها. أما الرشدية العسكرية (الإعدادية) فقد افتتحت في سنة ١٨٧٩. وقد تميزت المدرسة الإعدادية بأنها لم تكن مجانية فقط وإنما كانت (داخلية) أيضاً. وقد خرجت هذه المدرسة خلال السنوات ١٨٧٠ – ١٨٩٠ عدداً من أحسن الضباط الذين التحق معظمهم بالجيش السادس الذي كان مقره بغداد[١٥]. ولعل مدرسة الفنون والصنائع التي كانت من بواكير الخطى على طريق الصناعة. ولعل من أهم ما رافق إنشاء هذه المدرسة أن مدحت باشا شن حملة واسعة النطاق لجمع التبرعات من المدن والبلدان العراقية كافة وكان من بين المتبرعين عدد من شخصيات البلد المرموقة. وأن مدحت باشا استملك بناية إحدى المدارس الدينية لكي ينشئ مدرسة الفنون. وكانت هذه البناية تطل على دجلة وقد نقضها مدحت باشا وبناها من جديد وأضاف إليها قسماً داخلياً وصفوفاً وقاعات للمعامل وقد استفاد في ذلك من طابوق سور بغداد الشرقية وقد ظلت هذه البناية قائمة حتى سنة ١٩١٧. ثم أصبحت مقراً للبرلمان العراقي في العهد الملكي. الملاحظة الأخرى المهمة أن مدحت باشا قصر القبول فيها أول الأمر على أيتام المسلمين وفقرائهم وجمع لها من هؤلاء عدداً بلغ (١٤٤) طالباً ولذلك ظلت المدرسة تسمى خلال فترة طويلة من الزمن دار الأيتام[*].

لقد اتسع اهتمام مدحت باشا بالصناعة إذ قام بتأسيس معامل عديدة في بغداد واستورد لها المكائن والمعدات من البلاد الأوربية كما توسع في مشروع النقل النهري والبحري ... كما استورد أول مطبعة حديثة أخذت تطبع جريدة الزوراء وتسمى مطبعة الولاية[١٦]. وقد التحق للعمل فيها الطلبة الذين تدربوا على ذلك. وكانت إدارة المدرسة تقدم للطالب قرضاً مالياً بعد تخرجه ليتمكن من شراء الأدوات اللازمة كي تعينه في كسب عيشه بالحرفة التي تدرب عليها[١٧].

---

٥ (١) نفس المصدر ، ص٣٨٢.

(*) أنشأ مدحت باشا مدرسة أخرى للصنائه في كركوك سنة ١٨٧١ وشيد لها بناية خاصة من تبرعات الأهلين.

٦ (١) ياسين الحسيني، أول مدرسة للصناعة في بغداد، دراسة في جريدة المشرق العدد (٢٥٣٦) في ٢٤/ كانون الأول/ ٢٠١٢.

٧ (١) نوار، مصدر سابق، ص٣٨٣.

لقد ترافق إنشاء المدارس في بغداد مع بدء نهضة صناعية قد تكون محدودة[*] – خصوصاً وأن إنجازات مدحت باشا سرعان ما أهملت – إلا أنها تكتسب أهمية تاريخية كونها قد فتحت أبواب الحضارة الحديثة للعراقيين.

البحث عن بناية تصلح كمدرسة للبنات :

أول الطريق :

ثمة اختلاف بين الباحثين حول تاريخ أول مدرسة أنشئت في بغداد إذ يرى البعض أنها أنشئت عام ١٨٦٩ أي في عهد مدحت باشا بينما يرى آخرون أن أول مدرسة أنشئت في عهد داود باشا (١٨١٧ – ١٨٣٢) [١٨] وفي اعتقادنا أن الظروف التي عاشها داود باشا لم تكن تسمح له بالتفكير في إنشاء مدرسة في بغداد. إذ ورث مشكلات العراق التقليدية وخاض معارك شاقة وعنيفة ضد العشائر، وضد أمارة بابان في كردستان كما دخل في حرب ضروس مع الفرس وكان ضحية تآمر للبريطانيين والروس على السواء[١٩]. كذلك تعرضت بغداد في عهده لكارثة طبيعية كبرى وهي كارثة الطاعون الذي اجتاح البلاد وراح يفتك بأبنائها فتكاً ذريعاً وقد أهلك أكثرية سكان بغداد ولم يبق منهم بعد أن كان مجموعهم يعد (١٥٠) ألفاً سوى عشرين ألف نسمة[٢٠]. ولذلك فإن من الممكن القول أن أول مدرسة أنشئت في العراق كانت أحدى إنجازات مدحت باشا[*].

على أن إنشاء مدرسة للبنات تأخر لحوالي ثلاثة عقود وهو أمر يعكس الوضع البائس للمرأة[*] العراقية في مدينة (بغداد) كانت مناراً للعلم والحضارة. يقول الدكتور

(*) لم تكن بغداد تخلو من بعض الصناعات وخصوصاً في العصر العباسي، ومن تلك الصناعات الورق والنسيج والزيوت والصابون والجلود والسجاد. ينظر: إبراهيم يرزه محمد علي، مدينة بغداد، بغداد، العارف للمطبوعات، ٢٠٠٨، ص٢٤١ وما بعدها.

(١) ينظر : كريم محمد حمزة، بعض مؤشرات الحرمان في ميدان التعليم، مجلة كلية الآداب، العدد (٩٨)، ٢٠٠٩، ص٤٣٧.

(١) نوار، ص٢٤ وما بعدها.

(٢) جيمس ريموند ولستيد، رحلتي الى بغدادة في عهد الوالي داود باشا، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، النهضة العربية، ١٩٨٤، ص٧.

(*) ينظر في سبيل المثال : د. كريم محمد حمزة، القوالب النمطية عن المرأة وأثرها على إدارة المرأة لإدوارها الجديد، دراسة قدمت الى مؤتمر اتحاد الاجتماعيين العرب، بغداد، ٢٠٠٠.

(*) كانت المرأة المتعلمة كانت في الغالب نتاج تعليم خاص تتكفل بالاهتمام به والإنفاق عليه أسر نخبوية ثرية وبالتالي فإن النساء المتعلمات لم يكن يشكلن عدداً ذا قيمة بالقياس الى حجم النساء في بغداد ولعل السبب الرئيسي يكمن في أن بغداد وخصوصاً في القرنين الثالث والرابع الهجريين فقدت الى حد كبير بريقها كعاصمة لإمبراطورية إسلامية، لكنها امتلكت بريقها كعاصمة لحضارة الترف التي جسدتها قصص ألف ليلة وليلة، تلك الحضارة التي شكلت عناصر بيئة يعد التمييز ضد المرأة فيها حالة ضرورية للحفاظ على ما يعتقد أنه قيم مقدسة. ومن المؤسف أن رموزاً فكرية كبرى – مثل الغزالي – كانت ترى أن على المرأة أن تلزم بيتها وأن تتجنب الناس، حتى يصبح مغزلها جليس حياتها، وبيتها عالمها المغلق. لقد أصبحت حياة

طارق الحمداني أن المرأة العراقية عانت كثيراً من ضروب الاضطهاد والاستغلال والاستبعاد والتخلف. إذ ظلت المرأة طوال العهد العثماني أسيرة العادات والتقاليد البالية التي لا تعطيها أية قيمة بشرية ... ولم تكن عزلة المرأة مقتصرة على الحجاب فقط بل هي تعيش في عزلة تامة عن الرجال حتى داخل بيتها وكانت فرص التعليم للمرأة أقل من فرص الرجل[٢١].

ظلت المؤسسة التعليمية في العراق مرتبطة بالمؤسسة الدينية الى حد كبير، ولعبت الأوقاف دوراً مهماً في إنشاء مدارس مهمة وبارزة في تاريخ بغداد. من ذلك مثلاً المدرسة العلية في بغداد (١١٧٦هـ - ١٧٦٢م) والمدرسة البشيرية والمدرسة العصمية فضلاً عن المعالم المهمة التي تمثلت في المدرسة المستنصرية وبيت الحكمة وغيرهما. يقول الدكتور عماد عبد السلام رؤوف أن الحياة الثقافية في بغداد قد شهدت منذ أوائل القرن الثاني عشر (الثامن عشر الميلادي) اتجاهاً قوياً نحو تأسيس المدارس الدينية ووقف الأوقاف للإنفاق عليها وإدامتها[٢٢]. ولم يكن هذا الاتجاه في التعليم يوفر فرصاً للمرأة. أما الكتاتيب فهي مدارس أولية يتعلم فيها أطفال المسلمين القراءة والكتابة ومبادئ الدين الإسلامي وقد شهدت المجتمعات العربية الإسلامية هذا النوع من التعليم منذ وقت مبكر من القرون الهجرية الأولى. ولم تكن الكتاتيب التي وجدت في العراق في أواخر العهد العثماني تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في القرن الثالث الهجري. وكانت المساجد والجوامع أمكنة للكتاتيب حيث يحشر عشرات الأطفال في غرف مظلمة ورطبه مما دعا إدارة المعارف في بغداد الى غلق كتاتيب مدينة بغداد بصورة مؤقتة في السنوات القليلة التي سبقت زوال الحكم العثماني عن العراق لأن تلك الكتاتيب ((ليس فيها محل لحفظ صحة الأطفال ولا لأغلب المعلمين وقوف على أصول التعليم)). لم يكن التعليم في تلك الكتاتيب مجانياً بل كان والد الطفل يدفع المبلغ الذي يتمكن من دفعه. ومع أن أعراف المجتمع العراقي كانت تقف عائقاً أمام تعليم المرأة فإنه قد وجدت في أواخر العهد العثماني بعض الكتاتيب الخاصة بالبنات ومعظمهن من بنات الأسر المتوسطة . أما الأسر الموسرة فكانت تخصص مصلحة أو أكثر أو

الترف بكل ما تعنيه من جواري وغلمان وممارسات انحرافية بمثابة مبررات لعزل المرأة عن تيار الحياة الاجتماعية، بأسم الحفاظ على قيم الشرف والحياء.

[١] (٢) د. طارق نافع الحمداني، ملامح سياسية وحضارية في تاريخ العراق الحديث والمعاصر، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٩، ص٦٣ وما بعدها.

[٢] (٢) د. عماد عبد السلام رؤوف، المدرسة العلية في بغداد، سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٨، ص٣٦، ٣٧.

معلماً أو أكثر لتعليم بناتها[*] ويلاحظ أن الدولة العثمانية كانت تعتبر الكتاتيب تقوم مقام المدارس الابتدائية ولذلك كانت تقبل خريجيها في المدارس الرشدية[٢٣].

في سنة ١٨٩٩ (١٣١٨هـ) وفي زمن الوالي نامق باشا تم إنشاء أول مدرسة للبنات حين قرر الوالي في تلك السنة تأسيس (مكتب للإناث) يضم الدراستين الابتدائية والمتوسطة دعاه (أناث رشدي مكتبي) ... وقد تم تسجيل حوالي (٩٠) طالبة. وبعد ذلك تم فتح مدارس مماثلة في الموصل وفي غيرها. وبإعلان الحرب العالمية الأولى أغلقت هذه المدارس أبوابها فلما انتهت باحتلال الإنكليز للعراق أهملوا مسألة إعادة فتح مدارس الإناث لأنهم أولا ليسوا بحاجة الى استخدام الإناث في دوائر الحكومة وثانياً لعدم وجود عدد كاف من المعلمات وثالثاً لأنه الناس متعصبين غير راغبين بإرسال بناتهم الى المدارس. ولكن في أواخر عام ١٩١٩ أعلنت نظارة المعارف أنها استقدمت مربية إنكليزية ستقوم بفتح أول مدرسة للبنات في بغداد وقد تم فتتاحها فعلاً بتاريخ ١٩٢٠/١/١٩ ثم ألقت الطالبة (صبيحة الشيخ داود) [*]. خطاباً وجيزاً شكرت فيه نظارة المعارف على فتح المدرسة[٢٤].

ومن الطريف ما يروي عن أول مدرسة للبنات أن الوالي عرض على مجلس معارف ولاية بغداد هذا الموضوع وكان أكثرهم من العلماء والرجال المتدينين، فوافق الجميع إلا أنهم أخذوا يتباحثون في أمر البناية التي تصلح لتكون مقر مدرسة الإناث فطال جدلهم وتعددت شروطهم وكان رأيهم أن تتصف تلك الدار بما يلي :

١ – أن لا تكون إحدى الدور المجاورة لها متسلطة عليها.

٢ – أن لا تكون شبابيكها مطلة على الشارع.

٣ – أن لا يكون في الدور المجاورة لها أشجار عالية.

وكان المرحوم الشاعر الزهاوي أحد أعضاء ذلك المجلس فقال: أن هذه الشروط والمواصفات لا تنطبق إلا على بناية واحدة هي (حوض) منارة سوق الغزل إذ هو المكان الوحيد الذي يجمع كل هذه المواصفات فهو أعلى مكان في بغداد حيث لا يشرف عليه بناء ثم أن الفتيات يصعدن سلالمه دون أن يراهن أحد وليس

---

[*] بلغ عدد الكتاتيب في ولايات العراق الثلاث حوالي (٢٨٧) عام ١٨٩٠، منها (١٧) في بغداد و(٩٦) في ولاية الموصل و(٥٤) في ولاية البصرة، أي أن هناك كتاباً واحداً لكل (٥٩٠٧) نسمة من سكان العراق المسلمين سنة ١٨٩٠ وكان عدد المدارس الابتدائية عام ١٨٩٠ (١٠ مدارس) في كل من ولايتي بغداد والبصرة و(١١) مدرسة في الموصل وقد أزداد عدد الكتاتيب في بغداد سنة ١٩٠١ ليصبح (٤٠) كتاباً ووصل العدد الى حوالي (٥٠) كتاباً سنة ١٩٠٩.

[٣] (٢) راجع حول الكتاتيب: النجار، التعليم في العراق، مصدر سابق، ص٧٢ وما بعدها.

[*] وهي أول محامية عراقية ولها كتاب بعنوان : أول الفريق.

[٤] (٢) عبد الرزاق الهلالي، معجم العراق، بغداد، مطبعة النجاح، ١٩٥٣، ص٢١٣ وما بعدها.

لـه شـبابيك وإذا تكلمـن فـلا يسـمع صـوتهن أحـد. ضـحك الجميـع واتفقـوا علـى إحـدى الدور في محلة الميدان الجديدة[٢٥].

ولعـل مـن المفيـد الإشـارة هنـا الـى الـدور الـذي لعبـه بعـض المثقفـين مـن أمثـال الشـاعر الزهـاوي الـذي تـابع جهـود المصـلح المصـري قاسـم أمـين وكـان لـه تـأثيره علـى الـوالي نـامق باشـا[*]. كمـا أن (الأفنديـة) الـذين حصـلوا علـى قسـط مـن التعلـيم كـانوا علـى الجانـب المؤيـد لتعلـيم المـرأة وسـفورها. وقـد حـدثت جـدالات طويلـة بيـنهم وبـين المحافظين الرافضين لفرة تغيير أوضاع النساء بما في ذلك تعليمهن.

أنتهـى عهـد العثمـانيين ولـم يكـن فـي العـراق قبيـل الحـرب العالميـة الأولـى (١٩١٤) سـوى (١٦) مدرسـة بلـغ عـدد الطـلاب المسـجلين فيهـا (٦٠٠٠) وعـدد المـوظفين فعـلاً أقـل مـن هـذا بكثيـر. وعنـدما احتلـت القـوت البريطانيـة البصـرة واسـتقر لهـا الحـال ارتـأت تنفيـذ مـنهج المعـارف علـى حسـاب حاجتهـا وبـدأت بمحاولـة تأسـيس بعـض المـدارس فـي البصـرة ومـا جاورهـا . وظلـت الحـال كـذلك حتـى تـم احـتلال العـراق حيـث اسـتقدم خبيـر بريطـاني مـن مصـر ليتـولى شـؤون المعـارف وقـد أسـس هـذا الخبيـر (نظـارة للمعـارف) وباشـر بنتظـيم شـؤون المعـارف فـي كافـة أنحـاء الـبلاد. وقـد حـاول أول الأمـر إعـادة فـتح المـدارس الابتدائيـة التـي كانـت موجـودة فـي بغـداد أيـام العثمـانيين لكنـه لـم يـنجح لأنـه معظـم معلميهـا كـانوا مـن الأتـراك فـرأى ضـرورة فـتح دورات تدريبيـة للمعلمـين قبـل المباشـرة بفـتح المـدارس الجديـدة دون أن يشـترط لقبـولهم أي شرط سوى معرفة القراءة والكتابة بمستوى حسن[٢٦].

إطار[٢٧]

مدارس بغداد عام ١٩١٩:

١ – المدرسة الحيدرية.

٢ – مدرسة البارودية.

٣ – مدرسة الفضل.

٤ – مدرسة الكرخ.

٥ – مدرسة باب الشيخ.

---

٥ (٢) نفس المصدر ، ص٢١٣ – ٢١٤.

(*) تعرض الشاعر الزهاوي، وهو رائد تحرير المرأة العراقية الى غضب شعبي جارف بعد أن نشر عام ١٩١٠ مقالاً في جريدة المؤيد المصرية وأعيد نشره في بغداد بمجلة أسمها (تنوير الأفكار). وقد وصف الزهاوي بأنه مارق عن الدين وصدر أمر الوالي بعزله من وظيفة التدريس في مدرسة الحقوق. (سعد البزاز، د. علي الوردي، في الطبيعة البشرية، عمان، الأهلية، ١٩٦٦، ص٥٦.

٦ (٢) الهلالي ، ص٢١.

٧ (٢) نفس المصدر ، ص٢١٢.

٦ – مدرسة رأس القرية.

٧ – مدرسة الكاظمية.

٨ – مدرسة الأعظمية.

غير أن تعليم الإناث ظل يواجه رفضاً اجتماعياً شديداً. ولم تفتح مدرسة للبنات في بغداد سنة (١٩٢٠) وكان من طالباتها كما أشرنا صبيحة الشيخ داود. وفي عام ١٩٢١ تم افتتاح مدرسة للبنات في الكرخ. ولعل من أهم أسباب عدم إقبال الفتيات على المدارس قلة عدد المعلمات غير أن المعارف قامت بتأسيس صف للمعلمات في مدرسة البنات المركزية ببغداد حيث تقضي الطالبة سنة واحدة تتخرج بعدها معلمة[٢٨].

في رحاب الدولة : مأسسة التعليم :

في ١٩٢١/٩/١٢ شكلت أول حكومة عراقية في العراق وأختير الشيخ العلامة محمد علي هبة الدين الشهرستاني وزيراً للمعارف في الوزارة الأولى فدعا عدداً من المختصين بشؤون المعارف وشكل لجاناً لإصلاح منهج الدراسة الابتدائية. وكان في العراق عام ١٩٢١ نحو (٩٠) مدرسة رسمية أولية (أربع سنوات) وابتدائية (ست سنوات) يعلم فيها (٤٨٠) معلماً وعدد طلابها حوالي (٨١٩٣) [٢٩].

يمكن القول أن التعليم بعد تشكيل أول حكومة في رحاب دولة، قد تطور ليصبح مؤسسة ينتظم الفعل الإداري المهني والعلمي فيها، في إطار مسؤولية الدولة نحو مواطنيها. مع ملاحظة أن المجتمع العراقي كان في حالة انقسام عميق إزاء مسألة تعليم الإناث، وهي جزء من مسألة أكبر تتمثل في (الحجاب) مع أن التحاق فتاة محجبة بالدراسة ليس غريباً كما هي الحال اليوم، غير إن الحجاب في ذلك الوقت كان رمزاً لعزلة المرأة. فهو امتداد لجدران المنزل، وتعبير عن سلطة رب الأسرة الأبوية وتأكيد على أن المرأة كائن يفتقر لإنسانية الرجل.

من الأحداث ذات المعاني الرمزية المهمة التي تعكس الموقف المحافظ من قضايا المرأة : ما ذكره الدكتور الوردي. ففي (٥) تشرين ثاني ١٩٢٤ وصل الأمير غازي بن الملك فيصل الأول من الأردن وجرى له استقبال كبير وكانت دهشة الناس كبيرة حين وجدوا أن من جملة المستقبلين فرقة كشافة مؤلفة من فتيات سافرات من مدرسة البارودية للبنات ولم تكتف المديرة بذلك بل صارت تخرج فرقة

[٨] (٢) الهلالي، ص٢١٦.

[٩] (٢) د. ناجح الراوي، تطور العلم والتعليم في العراق المعاصر ، دراسة قدمت في بيت الحكمة بالتعاون مع اليونسكو، بغداد، ٢٠٠٠.

الكشافة في عصر كل اثنين من كل أسبوع لكي تسير في الشوارع وفيها الفتيات سافرات ومقصورات الشعر أيضاً . فأثار ذلك ثائرة المحافظين على الرغم من صغر سن الفتيات إذ عدوا ذلك منافياً للشرع والأخلاق وحفظ الأعراض[٣٠].

وقبل ذلك بعامين أي في عام ١٩٢٢ أقام المعهد العلمي في بغداد مهرجاناً شعرياً عرف بأسم سوق عكاظ ورأى بعض منظمية أن تساهم الفتاة العراقية فيه ووقع الاختيار على (صبيحة الشيخ داود) التي كانت بسن الثامنة لتقوم بإلقاء بعض الأبيات الشعرية العربية للخنساء وقد أثار هذا الأمر انتقادات كثيرة خصوصاً وأن (صبيحة) هي حفيدة الشيخ داود الذي درس السيد عبد الرحمن النقيب رئيس الوزراء آنذاك ... وقد صمدت الفتاة رغم أن النقيب هدد بالاستقالة[٣١].

ومع أن القانون الأساسي للدولة العراقية (الدستور الذي صدر عام ١٩٢٥) لم يشر الى المساواة بين الجنسين إلا أنه أشار في المادة السادسة من الباب الأول (حقوق الشعب) أن : لا فرق بين العراقيين في الحقوق أمام القانون وإن اختلفوا في القومية والدين واللغة[٣٢]. كما أن الدستور لم يتطرق لمسألة التعليم وواجبات الدولة إزاءه. مع ذلك نجحت المرأة العراقية في إصدار أول مجلة لها بعنوان (ليلى) وقد أصدرتها بولينا حسون في (١٥) تشرين الأول ١٩٢٣ وقد بشرت المجلة بنشر الثقافة والتعليم لكنها لم تجرؤ على الدعوة الى السفور، ولم تصدر مجلة نسائية أخرى إلا في سنة ١٩٣٦ وهي مجلة (المرأة الحديثة) وبعدها صدرت مجلة فتاة العراق، ومن منظمات المجتمع المدني النسوية (نادي النهضة النسوية) (١٩٢٤) وقد بدأ النادي بفتح دوره لتعليم الأميات وتعليم عدد من الفتيات اليتيمات. ومع أهمية نشاط هذا النادي فإن ضغوط المحافظين أدت الى إغلاقه. وفي عام ١٩٣٣ أنشئ الفرع النسوي لجمعية الهلال الأحمر، ثم جمعية بيوت الأمة (١٩٣٥) وجمعية مكافحة العلل الاجتماعية ١٩٣٧[٣٣].

أن هذا النشاط النسوي، مع كونه نخبوياً، قامت به نساء تلقين قسطاً من التعليم، فإنه يعكس بعض مؤشرات تحديث المجتمع العراقي. وبنبغي الإشارة هنا الى حقيقة أن الملك فيصل الأول بالذات كان له دور بارز في النهضة التعليمية التي ترافقت مع قيام الدولة العراقية إذ كان الملك يرى بأن النظام التعليمي متخلف وأن ذلك ربما يؤثر على مستقبل

---

٠ (٣) سعد البزاز، مصدر سابق، ص٥٧.

١ (٣) د. طارق الحمداني، مصدر سابق، ص٨٥.

٢ (٣) وائل عبد اللطيف الفضل، دساتير الدولة العراقية، للفترة من عام ١٨٧٦ لغاية عام ٢٠٠٥، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠٦، ص٤٨.

٣ (٣) د. طارق الحمداني، مصدر سابق، ص٧٥ وما بعدها.

البلاد. ويذكر أنه عند تتويج الملك فيصل لم تكن هناك سوى (٣) مدارس ابتدائية للبنات ارتفع عددها الى (٢٧) مدرسة بعد سنة وقد بلغ حماس الملك فيصل للتعليم حدا جعله يقول (لو لم أكن ملكاً لما رغبت إلا أن أكون معلماً) وقد عقد في عهده أول مؤتمر تربوي في تاريخ العراق (نيسان ١٩٣٢) ودام أسبوعاً كاملاً. وألقى الملك في المؤتمر خطاباً قال فيه (تأكدوا أن العمل الذي تقومون به هو أعظم من عمل الملك وأعظم من عمل الوزير) ومن الإنجازات التي تذكر للملك في بداية حكمة (١٩٢١) أنشاء جامعة آل البيت وفي فترة حكمه تأست كلية بغداد (١٩٣٠) [٣٤].

جدول بأعداد المدارس الابتدائية للجنسين١٩٢٧ – ١٩٥٠ (بالألف) [٣٥]

السنة	الذكور	الإناث	المجموع	الذكور للإناث%
١٩٢٧	٢١,٨	٤,٨	٢٦,٧	٤,٤٧
١٩٢٨	٢٣	٥	٢٨,١	٤,٥٠
١٩٢٩	٢٤,٨	٦	٣٠,٨	٤,١٠
١٩٣٠	٢٧,٤	٦,٧	٣٤,٢	٤,١٠
١٩٣١	٢٨,٩	٧,٨	٣٦,٨	٣,٦٠
١٩٣٢	٣٣,٦	٩,٩	٤٣,٢	٣,٣٠
١٩٣٣	٤٠,٦	١٢,٧	٥٣,٤	٣,٢
١٩٤٢ ١٩٤٣	٦٢,٤	١٩,٤	٨٨,٨	٣,٢٥
١٩٤٤ ١٩٤٥	٦٨,٩	٢٠,١	٩٧	٣,٤٣
١٩٤٦ ١٩٤٧	٨٠,٥	٢٤,١	١٠٤,٧	٣,٤٤
١٩٤٨ ١٩٤٩	٨٦,٥	٢٥,١	١٢١,٢	٣,٧٧
١٩٥٠ ١٩٥١	١٠١,٧	٢٧	١٣٩,٢	٣,٩٢

[٤] (٣) د. أحمد جوده، مصدر سابق، ص

[٥] (٣) موسيس ديرهاكوبيان – حالة العراق الصحية في نصف قرن، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١، ص٩٢ . مع ملاحظة أن هناك بعض الاختلاف في الإحصائيات وخصوصاً تلك التي تتعلق بالإناث. (قارن مثلاً : طارق الحمداني، ص٧٩).

أما التعليم المتوسط فإن انتشاره كان محكوماً بتعاظم إعداد خريجي الدراسة الابتدائية. ويجع تاريخ إنشاء أول مدرسة متوسطة في العراق الى أيام مدحت باشا الذي أسس أول (رشدية مكتبي) في بغداد ومستوى الدراسة فيها بعد الابتدائية. ثم بعد ذلك تأسس (الإعدادي ملكي) رسمي في بغداد بأسم المكتب السلطاني عام ١٩١٣ وكان أكثر المدرسين من الأتراك. وفي عام ١٩٢٥ فتحت أول مدرسة ثانوية حديثة في بغداد. أما الدراسة المتوسطة والثانوية للبنات فلم تبدأ في عام ١٩٢٩ – ١٩٣٠ حين فتحت أول ثانوية للبنات هي (الثانوية المركزية للبنات) وكان عدد طالباتها في سنتها الأولى ، طالبة فقط[٣٦].

لاشك أن التعليم في بغداد قد تطور على نحو حثيث بعد قيام الدولة العراقية. ويرجع ذلك الى جملة من العوامل المتداخلة أهمها في اعتقادنا :

- أن رموز الدولة وخصوصاً الملك فيصل الأول كان حريصاً على نشر التعليم.
- يمكن القول أن معركة السفور والحجاب كانت تعكس حقيقة أن الوعي الاجتماعي ببعض حقوق المرأة كان قد بدأ بالتبلور.
- أن التعليم قد أصبح له مردود اقتصادي إذ أن المتعلمين والأفندية هم الذين وجدوا لهم أماكن عمل في الدولة الحديثة.
- تعاظم ميزانية المعارف. إذ يورد عبد الرزاق الهلالي ما يؤيد أن تلك الميزانية ارتفعت من (٢,٣%) من الميزانية العامة سنة ١٩٢٠/١٩٢١ الى (٣,٢%) سنة ١٩٢١ – ١٩٢٢. ثم الى (٦,١%) سنة ١٩٢٩/١٩٣٠ والى (٩,٦%) سنة ١٩٣٥/١٩٣٦ ثم الى (١١,١%) سنة ١٩٤٠/١٩٤١ والى (١٤%) سنة ١٩٥٠/١٩٥١[٣٧]. غير أن الدكتور هاشم جواد وجد أن هذا الارتفاع كان أقل بالقياس الى التنبه العام وتعاظم الحركة الاقتصادية والاجتماعية[٣٨].
- الاستفادة من الخبرة الأجنبية. ففي عام ١٩٣١ استقدمت الحكومة لجنة من المعهد الأممي لكلية المعلمين بجامعة كولومبيا لدراسة النظام التعليمي في العراق وقدمت تقريرها الذي انتقد جمود النظام التعليمي وشخص مشكلاته واقترح إجراءات لتطويره[٣٩] وبناء على التقرير فتحت وزارة المعارف مدرسة الفنون البيتية ولم تحتوي المدرسة عند افتتاحها إلا على صف واحد بلغ عدد الطالبات فيه (٥٨) طالبة. كما فتحت مدرسة تطبيقات ريفية لدار المعلمين في الكاظمية

---

٦ (٣) الهلالي، مصر سابق، ص٢١٧ – ٢١٩.

٧ (٣) نفس المصدر، ص٢٦٧ – ٢٦٨.

٨ (٣) هاشم جواد، كيان العراق، مصدر سابق، ص١٠٩.

٩ (٣) د. كريم محمد حمزة، التعليم في العراق، بيت الحكمة، ص٥.

(١٩٣٣/١٩٣٢) كما حفز التقرير على إنشاء أولى دور المعلمين الريفية[٤٠]. وكانت السلطة البريطانية قد فتحت دورات تدريبية لبعض المتعلمين قصيرة الأمة في عام ١٩١٧ وفي عام ١٩١٩ أصبحت مدة الدراسة فيها سنة واحدة ثم سنتين ثم ثلاث سنوات. وفي عام ١٩٢٩ أصبحت الدراسة فيها لمدة أربع سنوات.

طلاب دور المعلمين من الجنسين[٤١] ١٩٢٠ – ١٩٥٢

السنة	ذكور	إناث
١٩٢١/١٩٢٠	٩١	–
١٩٣١/١٩٣٠	٢٨٦	١٠٠
١٩٤١/١٩٤٠	١٦٨٠	٤٤٩
١٩٥٢/١٩٥١	٨١٨	٣٠٢

وفي عام ١٩٣٧ قدم الدكتور متي عقراوي مشروع التعليم الإجباري في العراق[٤٢] الذي لم يتحقق إلا بعد سنوات.

أما التعليم الجامعي فقد تفاوتت سنوات إنشاء كلياته. ونورد في ملحق الدراسة بعض التفاصيل الموجزة عن بعضها لقد كان للحرب العالمية الثانية تأثيرها البالغ على النظام التعليمي في العراق إذ مر المجتمع بظروف اقتصادية صعبة، ولذلك لم يصدر نظام المعارف إلا سنة ١٩٤٣.

الخاتمة :

لا شك أن التعليم هو القوة التي مكنت مجتمعات عديدة من قهر تخلفها، وتحديث مؤسساتها، وتطوير أوجه حياة أفرادها وجماعاتها. ومع أن للتعليم في العراق عثراته ومعوقاته، بما في ذلك جمود مناهجه، وضعف مضمونها العلمي، وطابعها التلقيني، وخضوع التعليم في أحيان كثيرة لايديولوجيات السلطات، واجتهادات القادة، فإنه بوابة الدخول الى عالم الحداثة. إذ هو الذي ينمي وعي الإنسان بمقتضيات حياته، وظروف واقعة، وحاجات مستقبله، فيتيح له الإنجاز، ويحرره من الخرافة، ويطلق قدراته العقلية. ولذلك يمكن القول أن أفضل أنواع الاستثمار هو الاستثمار في التعليم لأن إيجاد رأس مال اجتماعي منتج لا يمكن أن يتم إلا من خلاله.

---

[٤٠] د. أحمد جودة، نفس المصدر، ص١٥٤ – ١٥٥.

[٤١] الهلالي، ص٢٢٣ من عام ١٩٢٥/١٩٢٤ فتحت أول دار للمعلمات.

[٤٢] د. متي عقراوي، مشروع التعليم الإجباري في العراق، بغداد، مطبعة الحكومة، ١٩٣٧.

في هذه الدراسة الموجزة تناولنا جانباً من الهوية الثقافية لمدينة بغداد ممثلاً بالتعليم، وخصوصاً في مرحلته الابتدائية، التي تشكل البنية التحتية للمراحل الأخرى، فضلاً عن تركيزنا على تعليم الإناث وقد نظرنا الى بواكير التعليم في العهد العثماني على أنها بواكير تحديث المجتمع العراقي، وتابعنا أوضاع التعليم بعد قيام الدولة العراقية عام ١٩٢١.

تناولنا في الدراسة أوائل المدارس التي افتتحت في بغداد منذ عام ١٨٦٩ حيث أنشئت أول مدرسة ابتدائية، ويلاحظ أن أول مدرسة افتتحت بذلك التاريخ للذكور وتأخر إنشاء أول مدرسة للإناث حوالي ثلاثة عقود إذ أن أول مدرسة لهن افتتحت عام ١٨٩٩ في زمن الوالي نامق باشا. وقد حاول الإنكليز إعادة فتح المدارس التي افتتحها العثمانيون إلا انهم واجهوا مشكلة نقص المعلمين كما أن تعليم الإناث كان خارج اهتماماتهم لأنهم كانوا يحتاجون الى متعلمين من الذكور لتشغيلهم في الإدارات المختلفة كما أن الموقف الاجتماعي من تعليم الإناث كان سلبياً.

لقد كان لقيام الدولة العراقية ١٩٢١ أثر مهم في تنشيط النظام التعليمي رغم أن المسيرة كانت بطيئة أيضاً. إلا أن الملك فيصل الأول أبدا اهتماماً كبيراً بالتعليم. وفي أواسط الثلاثينات تقريباً استقدمت الدولة لجنة من جامعة كولومبيا التي على أساس توصياتها وضع نظام المعارف عام ١٩٤٣.

(ملحق)

تواريخ إنشاء بعض الكليات في العراق[٤٣]

أولاً : كلية الحقوق : تعتبر من أقدم كليات العراق إذ يرجع تأسيسها الى عام ١٩٠٨ وهو تاريخ إعلان الدستور العثماني (المشروطة) . بعد الحرب العالمية الأولى، (٢٥ آب ١٩١٩) أعلن عن أن التدريسات في كية الحقوق ستبدأ.

ثانياً : كلية التجارة والاقتصاد : ويرجع تاريخها الى ١٩١٨ حيث افتتح الإنكليز مدرسة مأموري المالية. ولكن افتتاح الكلية تأخر الى سنة ١٩٤٧.

ثالثاً : دار المعلمين العالية : يرجع التفكير في إنشاء معهد للمعلمين الى عام ١٩٢٢/ ١٩٢٣. وقد تم بالفعل افتتاحه عام ١٩٢٣. وقد ألغيت عام ١٩٣١ ثم أعيد فتحها عام ١٩٣٥.

[٤] يراجع حول هذه الكليات وغيرها: عبد الرزاق الهلالي، معجم العراق، بغداد، مطبعة النجاح، ١٩٥٣، ص٢٣٤.

رابعـاً : الكليـة الطبيـة : وقـد نـودي بإنشـائها منـذ سـنة ١٩٢١. وقـد تـم قبـول أول دفعـة مـن الطلبـة عـام ١٩٢٨/١٩٢٧ . وقـد قبلـت أول فتـاة فـي الكليـة عـام ١٩٣٤/١٩٣٣ وهي ملك غنام.

خامسـاً : كليـة الهندسـة: فـي عـام ١٩٢١ أسـس البريطـانيون مدرسـة الهندسـة. وقـد اسـتمر نشـاطها حتـى عـام ١٩٣٢ حيـث ألغيـت ثـم فتحـت مـن جديـد عـام ١٩٣٥ ثـم أصبحت كلية عام ١٩٤٢.

سادساً : كلية الآداب والعلوم : افتتحت عام ١٩٥٠/١٩٤٩.

المصادر والمراجع حسب ورودها في الدراسة:

١. إبراهيم يرزه محمد علي، مدينة بغداد، بغداد، العارف للمطبوعات، ٢٠٠٨.

٢. أحمـد جـودة، تـاريخ التربيـة والتعلـيم فـي العـراق (١٥٣٤ – ٢٠١١م)، بغـداد، نـورس للطباعة، ٢٠١٢.

٣. أحمد سالم الأحمر، علم الاجتماع الأسرة، بيروت، دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٤.

٤. جميـل موسـى النجـار، الإدارة العثمانيـة فـي ولايـة بغـداد، بغـداد، دار الشـؤون الثقافيـة، ٢٠٠١.

٥. جميـل موسـى النجـار، التعلـيم فـي العـراق فـي العهـد العثمـاني الأخيـر (١٨٦٩ – ١٩١٨)، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠٢.

٦. جـون سـكوت (المحـرر) علـم الاجتمـاع، المفـاهيم الأساسـية، بيـروت، الشـبكة العربيـة للأبحاث، ٢٠٠٦.

٧. جـيمس ريمونـد ولسـتيد، رحلتـي الـى بغـداد فـي عهـد الـوالي داود باشـا، ترجمـة سـليم طـه التكريتي، بغداد، النهضة العربية، ١٩٨٤.

٨. سعد البزاز، د. علي الوردي، في الطبيعة البشرية، عمان، الأهلية، ١٩٦٦.

٩. طـارق نـافع الحمـداني، ملامـح سياسـية وحضـارية فـي تـاريخ العـراق الحـديث والمعاصـر، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٩.

١٠. عبد الرزاق الهلالي، معجم العراق، بغداد، مطبعة النجاح، ١٩٥٣.

١١. عبـد العزيـز سـليمان نـوار، تـاريخ العـراق الحـديث مـن نهايـة حكـم داود باشـا الـى نهايـة حكم مدحت باشا، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٨.

١٢. علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٥.

١٣. عمـار عبـد السـلام رؤوف، المدرسـة العليـة فـي بغـداد، سلسـلة الموسـوعة التاريخيـة الميسرة، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٨.

١٤. كامـل عمـران و د. توفيـق الـداود، علـم اجتمـاع التنميـة، دمشـق، جامعـة دمشـق، ٢٠٠٨.

١٥. كريم محمد حمزة، التعليم في العراق، بيت الحكمة.

١٦. كريم محمد حمزة، القوالب النمطية عن المرأة وأثرها على إدارة المرأة لأدوارها الجديد، دراسة قدمت الى مؤتمر اتحاد الاجتماعيين العرب، بغداد، ٢٠٠٠.
١٧. كريم محمد حمزة، بعض مؤشرات الحرمان في ميدان التعليم، مجلة كلية الآداب، العدد (٩٨)، ٢٠٠٩.
١٨. متي عقراوي، مشروع التعليم الإجباري في العراق، بغداد، مطبعة الحكومة، ١٩٣٧.
١٩. محمد جبار إبراهيم الجمال، تأثير التحولات الاقتصادية في نمو المجتمع العراقي الحديث (١٨٦٩ – ١٩١٤) دراسة في مجلة: دراسات تاريخية، العدد (٢١)، ٢٠٠٩، بغداد، بيت الحكمة.
٢٠. موسيس ديرهاكوبيان – حالة العراق الصحية في نصف قرن، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١.
٢١. ميخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي ، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٨١.
٢٢. ناجح الراوي، تطور العلم والتعليم في العراق المعاصر ، دراسة قدمت في بيت الحكمة بالتعاون مع اليونسكو، بغداد، ٢٠٠٠.
٢٣. هاشم جواد، مقدمة في كيان العراق الاجتماعي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٤٦.
٢٤. وائل عبد اللطيف الفضل، دساتير الدولة العراقية، للفترة من عام ١٨٧٦ لغاية عام ٢٠٠٥، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠٦.
٢٥. ياسين الحسيني، أول مدرسة للصناعة في بغداد، دراسة في جريدة المشرق العدد (٢٥٣٦) في ٢٤/ كانون الأول/ ٢٠١٢.

Abstract

One of the most important indicators in the Iraqi society is represented in the official teaching system in Baghdad , especially in teaching the furniture . The latter is accompanied with political and economic variables that pave the way for the society 's opening on the world after the services were deteriorated owing to political factors . The study deals with the following :

1. Preface that includes responses to inquiries raised by the current study.
2. Modernization where the teaching system are started that being established by Midhat Basha in Baghdad
3. The teaching after the establishment of Iraqi state .

Keywords: Woman, Teaching, Baghdad.